حديقة المثقف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور

لمحمود النجوري

مدرسة تاجور

— ٣ —

لمحمود المنجوري

ويلتفت تاجور ، بعد اذ يقرر ان المدنية الهندية انما نشأت في الغابة مستمدة حريتها وتفكيرها وعناصرها ومقوماتها من حقائق الحياة البشرية التي لا تحدها اسوار المدينة ولا تكتنفها حدود الممالك الموضوعة ، يلتفت تاجور بعد هذا الى المدنية الغربية فيقول :

« وترى الغرب قد أخذته العزة كبراً ، فيحسب ان الشرق يعيش كلاًّ على الطبيعة ، وانه فقير . كأنه واياها في خصام دائم ، وانه لن ينال من أمرها شيئاً ، إلا ما قد يقتنصه منها اقتناصاً ، وانه يمضي على غير هدى او تفاهم ، إلا بالقدر الذي يحرفه الشرق عن حقائقه وأوضاعه »

هذا هو وحي المدنية الغربية ، المدنية التي نشأت بين الجدر والاسوار ، والتي لا تدع للشعور نمواً ، ولا تترك للفكر مجالاً للسمو في آفاق غير محدودة

« ففي حياة المدينة ترى الانسان قد جبل على توجيه قواه العقلية في مجرى حياته الخاصة ، وشئونه التي تتصل بمطامعه — وهذا الجهد يقيم فاصلاً مصطنعاً ، بين روح الفرد وبين الطبيعة الجامعة التي تحتضنه وتؤويه

« ولكن وحي الهند يختلف عن هذا الذي يوحي به الغرب ، إذ انه يتضمن العالم قلب الانسان ، وينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى ، وقد نمت الهند بالانسجام الكامل بين الفرد والجماعة ، وتشعر بأن الانسان قد لا يشعر بما حوله من كائنات ، اذا لم تقم بينهما الالفة والتفاهم الصحيح ، وذلة الانسان من الطبيعة تقع دائماً في الشكوى من أنه لا يحصل على الكثير من مطالبه وضرورياته منها إلا بجهوده الخاصة ، فيكسب لا بد أن يعمل ويجهد ، هذا حق ، إذ ليست جهوده ذاهبة هباء او عبثاً ، انه يجني كل يوم ثمرة النجاح ، وهذا يدل على وجود رابطة عقلية بينه وبين الطبيعة وما بينها من كائنات ، فلا يمكن ان تجني ثمرة في حقول لم يكن قد أصبح متصلاً بها تمام الاتصال » (١)

فتاجور يرد كل مدنية الى طبيعتها ، ويرى ان حضارة الغرب نشأت نشأة تدعو الى الانانية ، لانها نشأت محصورة في مطالب الانسان الذي جنى على نفسه ، فحد تفكيره بحدود مصنوعة ، وقيد مشاعره بأوضاع ضيقة ، فنشأ وهو يشعر بأن الطبيعة خصم له ، عليه ان يفكر في اخضاعها واستغلالها لرغباته ومطالبه ، وان هذا العالم لا بد ان يتغلب هو عليه ليقهره حتى يسوده — بينما الحضارة الهندية على نقيض هذا ، نشأت في حرية لا حد لها ، وكان مهمة العقل الشرقي ان يدرك من الحياة حقائقها ، لا ان يبسط عليها نفوذه ويناصبها العداء ، فهو هذه

(١) سادهانا ص ١

منتظر الى ان يوثق العلاقة بين نفسه وبين الطبيعة ، وينفي عن نفسه هذه العزلة وهذه الوحشة التي تدعوه الى التفكير في السيطرة والسيادة والشعور بالفردية ، وهو هذا يشعر في نفسه بوجوب الاندماج في العالم ، يبادله حبًّا بحب ، وعطفاً بعطف ، فهو عندما يسخر الطبيعة ، لا يسخرها لانهُ قهرها وأذلها ، ولكن لانهُ فهم منها أسرارها فأحبها ، وشعر في نفسه بأنهُ منها وأنها من ذاته ، وألاَّ حواجز تحول بينه وبينها ، فهو لا يفرق بين ما هو انساني متصل بنفسه ؛ وبين ما هو طبيعي متصل بالكائنات ، بل هناك وحدة تجمع الكل في رباط واحد ، هناك قوة الله التي خلقتنا وسخرت بعضنا لبعض لمناصرة الفكر والعقل والحياة والحرية

والحضارة الغربية قد وضعت العلوم ، وسخرت العقل البشري لقهر الحياة واذلال الطبيعة ، بينما نرى الحضارة الشرقية فيما يقرره تاجور في قوله :

« إن ادراك العلوم الطبيعية يجب ان يلهم نفوسنا المسرة بالمعرفة والبهجة بالحياة وأسرارها . يجب ألا تنحدر بنا المعرفة بالعلوم الطبيعية طلباً الانانية ولا نهم الكسب المادي من تسخير الطبيعة ، ولكن يجب ان يقودنا اليها ما نتوخاه لها وتحققه : بشعور عاطف متبادل بيننا وبين الطبيعة ، فيفيض علينا فيضاً غزيراً من السرور والصفاء — إن العقل الهندي لا يتردد في الاعتراف بأواصر القربى بين الانسان والطبيعة ؛ ويرى ان وحدة الكون جوهرية ، يجب ألا تكون موضع تفكيره او تأمله العقلي فقط ؛ ولكن يجب ان تكون وحدة الكون غايته من الحياة ، يحققها بالجهد المبذول ؛ بالشعور والعمل » .

فمدرسة تاجور ، تدعو الى رفع الفوارق بين الانسان وبين الطبيعة ، وتمتاز بحكمة الهند التي تقول بعدّ الدنيا والانسان حقيقة خالدة واحدة ، وفي هذا يقول تاجور :

« كم يكون الانسان في غيبة من السجن اذا هو لم يعتق نفسه بالعالم ، وكم يكون حراً مطلقاً عندما يتعرف الروح الخالدة الكامنة في الاشياء التي حوله . عندئذ تتكشف له الهيئة أمناً وزوراً ، في أروع معاني الرحمة والاحسان والعطف ، وعندئذ يشعر الانسان بأنه في فيض كامل من الحق ، وان السجن بالمغلقات والآفاق قد تم » .

فالطبيعة والانسان في نظر الشرق كائن واحد ، ولا يمكن للفرد ان ينقطع عن العالم ، بل هو موصول به روحيًّا ، وفي هذه المعاني يقول تاجور :

« إن الفرد لايمكن ان يعيش انساناً فذاً ، بل عليه ألا يهمل مكانه من الطبيعة الخادمة ، والا أرهق أعصابه ، إذ لم يأخذ مكانه من اللانهائية ومطالب الروح . ويجب عليه ان يعلم أنه وإن جاهد وبذل في الحياة ما بذل ، فلن يخلق عناصر وجوده في ذاته من نفسه ، ولن يكون كالنحلة تدبر غذاءها من جهدها طوال العام ، فإن الانسان لا يمكن ان يعيش على ما في جسده من مخزن ، ولا بد من مدد موصول مما حوله من الغذاء ؛ يجب أن يدرك انه اذا ما حبس نفسه وقصرها على الانسان بالعلم وبالانانية ، وإذا ما عكف على نفسه يجتر الموت ويلتمس منه الغذاء ؛ وردَّت نفسه الى العطب ، وتمزقت إرباً ، وأكل بعضها البعض الآخر ، فهو مفتقر الى ما حوله من عنصر الحياة الاخرى ، هو مفتقر الى ان يحاط بحياة منها ، فإن نزعت عنه ، حرم الغذاء ، وأصبح ثانياً كرهين بعاب ، وتجردت ثروته الروحية من المروءة وعزة النفس ،

واندفعت نفسه تضرى في السفه والاسراف ، وقد انقطعت بها وشيجة الحياة الجامعة ، فتصبح الشهوة غاية له في ذاتها ، ويصبح أنانيا ، ثم ينقلب الى نار تذكى لهيب لتأكل ما حولها ، ثم يكفهر لهيبها . تتأى عن نفسها ، وتصبح حياة الفرد مفزعة مخيفة » (١)

وتدعو مدرسة تاجور الى تعاون المدنيات على الخير والبر والسلام بأن تتلاقح هذه المدنيات بعضها ببعض ، لتوليد ثقافة عالمية ، لا يشعر فيها الانسان بنفور أو بؤس أو فاقة روحية ، فالحضارة الانسانية ، التي لا تعرف الوطن ، ولا اللغة ، ولا الجنس ، ولا اللون ، هي رسالة مدرسة تاجور ، التي ينبغي ان تعم الدنيا وتشمل الوجود ، ولا بد للوصول الى تحقيق هذه الرسالة من ان يشعر كل فرد بالتوافق الروحي مع ما حوله في العالم

« إن قلب الانسان ، هو هذا المكان المقدس ، الذي يشعر منه بالتوافق الروحي ، بينه وبين الاشياء التي تحوطه في العالم ، حيث تلتئم روحه بروح الدنيا . إني لا أستطيع أبداً ان أعتقد الاشياء على غير هذا الوضع ، وانها لخديعة للمرض حقاً ، لو استمسك التاريخ بإعادة نفسه ، وتكرار احداثه ، على شاكلة واحدة لا تتغير . وانه لخير للروح العامة ، ان يلتئم الناس على اختلاف أقدارهم في سوق البشرية ، عارضة منتجاتهم الروحية والفكرية المختلفة ، لان بعض الانتاج هو في الحق متمم وضروري للبعض الآخر ، إن كل ما أرغب القول فيه : هو ان الهند قد أهلت لي مطلعي وجودها ونشوء اتجاهها على أحداث ملائمة ، كان فيها الخير والبركة ، فاستغلتها فرصة متاحة للتفكير وإنعام النظر ، والكد ، ومجاهدة النفس ، فسبرت أغوار الوجود ثم أنجزت من هذا البذل الروحي شيئاً له قيمته للبشر ، ذلك بالتاريخ البشري طرائق متباينة ، ولكنها طرائق تدعو الى تكوين انسان كامل نال نصيبه من جميع المدنيات . فلكي ينمو الانسان نمواً كاملا ، لا بد له من تلبية ما يحتاج اليه تكوينه من العناصر ، والمواد الحيوية المختلفة التي تدبر حياته المركبة . فغذاؤه إذن يجب ان يكون مختلف العناصر مجلوباً اليه من حقول متباينة التربة

والحضارة قوالب وقيم ، يجهد كل شعب في ان يهيء له منها ما يصلح ، لتخريج أناسه ، رجالا ونساء ، في أوضاع ، طبق مثله التي يؤثرها تكوينه ، وكل شعب يرى قيمة حضارته وقوالبها ، في جميع نظمه وكل تشريعه وتقنينه ، وتحديد مستوى الجزاء والعقاب ، بل ان الحضارة لتبعد ولايتها عن ما هو أبعد من التشريع والتقنين ، فلها الولاية على الوجدانيات وما تستشعره الجماعات والافراد من أحاسيس ومشاعر مختلفة

وتجاهد حضارة الغرب بما اكتنزت من قوى ، لتجعل من البشر أناساً يسيطرون على الطبيعة بما أوتوا من عقول وبسطة في القوة ، وتدعو الى ان يصبح شأن الشعوب بأجمعها ، في بسط قوى الانسان على ما حوله من كائنات ، والى ان يمد الفرد مواهبه للوصول الى حق الملك والسيطرة لانتفاع الحياة واستثمار ما بين يديه ، وما خلفه من قوى ، وامتلاك كل هذا للغلبة والانتصار على الطبيعة — فالمدنية الغربية تهيء الفرد ليعد نفسه ليكون حراً على غيره ، وخصماً مجاهداً للطبيعة وسائر الانواع ، ويعد ما استطاع من قوة وذخر وسلاح لاذلال الحياة »

هذا هو رأي تاجور في الحضارة الغربية بينما يرى ان في حضارة الشرق المثالي السامية التي تسع الحضارة العالمية التي ينشدها

« وأما حضارة الهند القديمة فقد اتجهت الى مثل عليا ، الى هدف آخر غير الذي ترمي اليه حضارة الغرب ، بذلت في سبيله جهودها كاملة . فلقد أهملت ما عني به الغرب من احراز للقوة وبسط السلطان ، ولم تدعم نفسها بوسائل الهجوم أو الدفاع المادي ، في سبيل حيازة الثروات ، وجلب الاموال ، او فرض النفوذ السياسي على

(١) سعد هانا

الغرب . . لقد اتجهت الحضارة الهندية الى النفوذ سعياً عن طريق الآثرة الروح والتأمل وادراك الوحدة، والاستغراق في البحث عن النوامس ، فحققت النفوذ المعرفي وتقدمت فقد البشرية 'حقيقة كريمة ، كالمدنية روحية — كما قيل الشرق الغربي — ان نزعة التطوع بالتجربة هي ما تبقيه الحضارة الشرقية » (١).

يلتفت تاجور بعد ان أبان الفروق بين المدنيـة الغربيـة والمدنية الشرقية ، يلتفت الى دعوته التي جاء برسالتها، مؤمناً بها عاملاً لها، فيدعو الكافة الى مدنية عالمية، لا أثر للجنس ولا للون ولا للغة فيها . وهو يدعو العالم عن طريق الحقوق الفطرية التي للانسان ، وعن طريق الوحدة الروحية التي جهد في اقناع العالم بانها الدعامة القوية التي يجب ان تنهض عليها حقوق الانسان في الحياة دائماً ولم يدعهُ عن طريق العقل والتفكير وحدها

ان تاجور يريد ان يطهر المدنية الغربية مما هي عليه من أسس عنيفة منحرفة عن طبيعة السمو والحياة ، ويراها مدنية قامت على قيم من الاثرة والحرب والغلبة وانكار الحقوق والاستهتار والابتعاد عن مطالب الروح والاندماج في المادة والالحاد — فهو بهذا يعمل على انقاذ الجنس البشري بتوجيهه الى المدنية الفاضلة المستقيمة فهو يأبى العنف ، وينكر الحرب ويمقتها مقتاً كبيراً ، ويرى الامة التي لا تستطيع ان تعيش الا بحماية سلاحها أمة مريضة الروح ، لا تعيش الا على مادة الجسد وحده ، وكم جلّت حسرته وانهمرت دموعه يوم زار اوروبا عقب الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) ويوم رأى ارضها غارقة بدماء الملايين من البشر ، ويوم سمع صوت الجندي المجهول يئن ان اتخذوني رمزاً للغدر والتقتيل ولا تتخذوني رمزاً للتضحية والوفاء . كم بكى يوم رأى اوروبا متشحة بالسواد بعد حرب طاحنة أتلفت اطماع افراد من القادة والزعماء . وكم رفع أكفه الى الله طالباً المغفرة يوم أيقن ان شروط السلام التي وضعت ، والتي سارت عليها اوروبا بعد هذه الحرب ليست الا اسباب حرب جديدة ستقضي اوروبا والعالم جميعاً فوق بركان جهنمي لا يهدأ ، أيقن تاجور بعد ان زار اوروبا ان المدنية التي تتخذ الحرب ظاهرة جوهرية لوجودها لا يمكن ان تكون مدنية فاضلة لله فيها صوت او فكرة او دعوة من روحه، وان مدنية لا تقوم الا على أسس الانانية والاثرة التي يحميها السلاح والغاز الخانق ، انما هي مدنية جارفة ستأكل عناصرها كما تأكل النار نفسها يوم ترون . ولقد حاضر تاجور شعوب اوروبا وأميركا، وقذف في وجوههم كلمة الحق وزرع في نفسهم وحوشاً في ذكر من الانسانية ، وأطلعهم على صور جميلة من نفسية الشرق، صور الحب، وادراك الحق والجمال، والتعاون الروحي ورتّل فيهم اغانيه الخالدة، فعلت وجوه الملوك والامراء حمرة وكآبة ، اذ حمّلهم مسؤولية ضياع الارواح البريئة في الحرب

(١) كانت تاجور نو ردة في هذا الفصل مقتبسة من محاضرة له ألقاها في مدرستهِ ونشرها في الفصل الاول من كتاب سعادة بعنوان « علاقة الفرد بالعالم »

الماضية ، وأكد لهم ان الفائز في تلك الحرب انما هو خاسرها الفاشل ، وان الضحايا ستثأر وتنتقم في يوم قريب . ولقد هاله من أمر اوربا ان رآها قد أسرفت في الأثرة والانانية وفي العصبية الجنسية الى أبعد حد نتيجة لفوضى الحرب التي خلّفت مبادىء اقتصادية وخلقية لا تستقيم مع سلامة الحياة وحريتها ، وأكد لهم ان اعصابه لا تقوى على احتمال التفكير في نتيجة هذه العصبية ، لأنها ستؤدي الى حرب أشد قسوة مما سلفت ، الى حرب حيوانية ، بعيدة عن القلب والروح ، لأنها حرب العصبية والاجناس ، وان المدنية الغربية سائرة الى الانقراض كلما ابتعدت عن روح الشرق الكبير الذي يدعو الى الوحدة الروحية والسلام والمحبة .

ولقد تأثرت اعصاب تاجور يوم علم بان اليابان قد اجتاحت جارتها الصين ، وبكى لانه شهد اليوم الذي اصيب فيه الشرق بروح الغرب الفاتكة المريضة ، واما الحرب الحديثة[1] فقد لحقته مريضاً يعاني آلام الاعصاب ، ولكنها ولا شك كانت امراً يتوقعه نتيجة للوضع الاوربي الذي نشأ بعد الحرب الماضية .

ولقد سمعت تاجور وهو يحاضرنا ، يوم احتفلنا به بعد زيارته لأوربا في فندق شبرد في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وهو يقول :

«ولا أشك مطلقاً في ان قد وجدت أمم من قبل ثم بادت فانية من حروب طاحنة في سبيل أغراضها . ولا تزال الآن في مجاهل أفريقيا أمم تسير في طريق الفناء ، وأمم الغرب ، على ثقافتها ، لا تقل في هذه الناحية جهلاً بالوحدة الروحية عن هذه الشعوب المتوحشة ، لاخذها في حياتها بخطة الاثرة وعد الحرب والسلاح ضماناً للسلام الاجتماعي ، بل ان الامم الغربية ترى كما ترى هذه الشعوب أن الغزو والتذابح ضرورة لبقاء الحياة . ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم والقبائل ، وتجعل كلا يعتز بكيانه وبنفسه ، وتجعل لون سحنتها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر ، فلم يبق لهذا التصور اليوم من سبيل ، بعد ان أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لاسباب أهمها تقدم المواصلات وسرعتها ، والتمازج العقلي بين الامم . لهذا يجب ان تمحى الاثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون . ويجب ان يشعر العالم ان هنالك وحدة روحية تربط أممه المختلفة .

ولقد أنست في أثناء سياحاتي في البلاد المختلفة في كثير من المفكرين اتفاقاً وإياي في فكرتي ، وثقة تمثل ما آتي به بأنه سيأتي يوم تسود فيه هذه الفكرة جميع الشعوب . ولقد احتفل بي البسطاء والسذج من الناس في بلاد شتى ، لانهم أحسوا في كتاباتي الدعوة الى هذه الوحدة الروحية التي تصبو اليها نفوسهم .

وأما الوسيلة لقبر الانانية وإزالة التعصب الجنسي فليست هي الحديد والنار ، وانما هي في انتشار الافكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعاً لادراك الحقيقة ، فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة ، يجب ان تكون غاية الغايات ، لكل شاعر ولكل مفكر ولكل مصلح اجتماعي ولكل فيلسوف ، ويجب ان تكون غاية الغايات للانسان الكامل ، ويوم يأتي الوقت الذي يعمل فيه كل للمعرفة الحقيقية ، فاذا رآها لم يتردد في اعلانها يومئذ يكون الانسان قد وصل الى الكمال حقاً ، وفي هذا اليوم يتم السلام على الارض . ان السلام لن يترتب على عمل صناعي مختلق كالاتفاقات الدولية وما اليها من معاهدات ومؤتمرات لنزع السلاح . انما الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام هي الوحدة الروحية . فهل تراني قد أحسست بأن هذه الوحدة قد بدأ ظهورها في العالم بعد الشعور بويلات الحرب وتدميرها ؟ »

---

(١) الحرب التي نشبت في سبتمبر سنة ١٩٣٩

في هذا الخطاب الوجيز يلخص تاجور دعوته إلى المساواة ، فيقول : « يجب ان تنمحي الأثرة . ويجب زوال التعصب للجنس واللون ، لانه وجد المدنية الغربية تنهض على هذه الأخطاء ولانه يخشى من انهيار هذه المدنية ، وفيها الكثير من ثمرات الفكر البشري ، وما يعد ضياعه خسارة لكنز بشري ثمين قد لا يعوض في اجيال وقرون

ولقد عارض فيلسوفنا ، بهذا المبدأ السامي مذاهب المساواة التي يؤمن بها العالم المتمدين في القرن العشرين ، وهو وإن لم يكتب رسالته في تفصيل علمي على نحو ما يكتب علماء الاجتماع بحوثهم ، الا ان رسالته الروحية تؤدي الى وضع المساواة في نصابها الحق ، ولانه يريد ان يبتعد عن الاسلوب العلمي لما يحتاج اليه من مغالطات في المنطق ، لان دعوته روحية لا تحتاج الى غير اخلاص في الأداء وإيمان بها

فعلماء الاجتماع والفلاسفة الذين نظموا مذاهب المساواة ، وقرروا استحالتها بين الامم والشعوب ، هم صورة للمدنية الغربية المنهارة ، بينما نجد تاجور صورة للشرق الكريم الذي يبشر بدعوة روحية ان سلكتها المدنية البشرية كانت المدنية الفاضلة التي تستمد كيانها من عناصر السماء والروح

ولكي نفهم اصالة الفكرة التي ترمي اليها رسالة تاجور « رسالة الشرق ، رسالة الوحدة الروحية والمساواة » يجب ان نلم بما يناقضها من مذاهب المساواة في مدنية القرن العشرين ، وهذه المذاهب هي رسالة الغرب المنهار

ولعل رسالة الغرب تتلخص في فلسفة نيتشه ، وفي العلوم التي حاول جوستاف لوبون ان ينظمها في ابحاث علمية . لقد أراد حقا ان يؤسسا مدنية الغرب على اسس من الانانية ، وقد رسماها رسماً صحيحاً في اساسها واوضاعها ، دون كذب او ملق ، لانهما يؤمنان بدعوتهما ، كما يؤمن تاجور الكريم بالدعوة التي تناقضها . فنيتشه وجوستاف لوبون صورة للغرب : لا يؤمنان بحق للانسان الضعيف ، ولا للانسان المحروم من القوة ، ولا للانسان الذي لم تهيء له الطبيعة أن يكون من جنس اوروبي أو لون من ألوان الشعوب الاوروبية — هما رجلان لهما نزعة الاستعمار ، يريان من حق القوي أن يأكل الضعيف ، احدهما يقيم آراءه على علوم كانت مبتسرة الى زمن تقرير هذه الآراء ، بل انه التمسها مغالطة منه . فهو يبني بحوثه على علم « الانثروبولوجيا » اي علم دراسة الانسان على مجموع العلوم النفسية والتشريحية والوراثية . فهو هنا يحدد ويرتب الناس ، طوائف وأجناساً وأنواعاً ويناقش نظرياته الاجتماعية على ضوء ما يتباين وما يتحد من صفات هذه الاجناس البشرية . وهو من هذا يصل الى أن الاختلافات الجنسية واللغوية والتشريحية اصول في تكييف المدنيات وحقوق الانسان في تغيير

الجماعات من حيث الميول والمزاج العقلي أو بعبارة اوضح : هو يقرر بأن المساواة مستحيلة بين الامم ، او هي مستحيلة بين الافراد ، لأن الأفراد أو لأن الامم مختلفة اختلافاً جوهريّاً في الوراثات والصفات التشريحية والامزجة العقلية والعضوية ، فالناس إذن متفاوتون ، لا يتساوون في الحقوق ، والامم اذن لن تتساوى أمام ميزان العدل العام ، وعليه فلا بد من أمة حاكمة مستقرة ومن أخرى محكومة مستعبدة

هذا النظر ينقضه تاجور ، وتأبى فطرته الانسانية ان تؤمن به ويرد عليه في قوله :

« يجب ان تمحي الاثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون »

ولا ينكر تاجور الخلاف الذي اشتجر بين الناس منذ القدم ، ولكنه ينكر عليه أنه صدر عن نزعة انسانية فيقول :—

« لقد نشأ الخلاف ، وقام النزاع بين البشر منذ فجر تاريخهم الاول ، ولقد سبقت بعض الجماعات بعضها الآخر ، وتقدمت غيرها مصادفة ، ثم أخذت تستغل ضعف الضعفاء ، ثم تكبر عتواً منها ، ثم أغاظت لها الاباد والملوك . إن هذه العادة ، عادة السيطرة والغدر قديمة في البشر ، ولكنا على الرغم من قدمها نجزم بأنها ليست من الانسانية في شيء ، وليس لامة متحضرة ان تبني عظمتها على إذلال الذين جردوا من انسانيتهم ظلماً وعدواناً ، وحبست أرواحهم في سجون مظلمة من الغفلة ليس للنور والعلم والمدنية اليها من سبيل »

فالمساواة اذن حق بشري مقرر ، ولكن الطغيان يهدمها ، وينكرها في مناطق كثيرة من هذا العالم

ولئن كانت الاثرة والانانية من مظاهر القوة للمدنية الحديثة ، الآن تاجور يقول فيها انها من مظاهر الانهيار لهذه المدنية فهو يقرر « لقد أسرفت الامم في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من أهل الامم المتحضرة ، على ان هذه العصبية هي اكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة ، فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غايتها ، وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة مدمرة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب الخاطىء ، وتلك الاثرة التي استكنت في صميم المدنية الغربية »

ولقد حمل كتاب الفيلسوف الالماني (ازوالد اشبنجلر) « سقوط الغرب » هذه النذر التي تضمر للمدنية الغربية الانهيار ، وفسر بطرائقه العلمية دعوة تاجور الروحية ، ولقد مهد لبحثه بقوله :

« إنه يريد أن يجرب لأول مرة تبيين مجرى التاريخ ، وان يوضح مستقبل المدنية التي تسود العالم والتي لها ذراعها ، وان يصور المراحل التي ستعقب في سقوطها » . [ثم قارن اشبنجلر المدنيات فقال]: بينما نرى الانسان في المدنية الغربية التي تمثلها الشاعر جوته بفاوست الذي لا يعرف إلا « الأنا » أي الذات المستندة الى نفسها لنفسها ، وبينما نرى الانسان في المدنية القديمة الذي يمثله اليونان (بأبولون) يعد نفسه (واحداً) من المجموع مسئولاً عن شخصه ، إذا نرى الانسان في المدنية الروحية (مدنية الشرق والاسلام) لا يعد نفسه

إلا جزءاً من كتلة كاملة تجمع كافة العناصر جميعاً (١) تتمثل في كل جزء منها كل العناصر من ثواب أو جزاء
وإن المدنية الشرقية هذه تؤمن بشيء آخر متمم يكون في وحدة الجماعة ويبحث الفرد ذاته على التفكير فيه باعتبار الفرد جزءاً من كل وأن هنالك روحاً تندمج بروحه وتجمعه بالجماعة هذه الروح المقدسة هي (الله) وهو معصوم من الخطأ في قضائه وتدبيره وأننا لنستطيع أن ندركه بالوصول إلى وضع الحق والتفكير من الصلاة أن ندع الأنانية في أمر التفكير فيبسط نفوذها على القوى الخفية الخارقة فيه » (٢).

روت إحدى الصحف الانكليزية[٣] أن تاجور كان في لندن في أثناء زيارة نجمة السما المشهورة ماري بكفورد لها وحدث أن كان الفيلسوف يمر في طريقه الى الدار التي يسكنها أثناء استقبال الشعب لهذه النجمة الجميلة التي ظفرت باستقبال فريد لم يظفر بمثله ملك من الملوك فتبعه صحفي وسأله رأيه في احتفال الشعب بنجمة السما فأجابه حكيم الشرق

« إنما ذلك بعض مظاهر حضارة الغرب المادية التي تدعو الى التعلق بما يفنى ، والانصراف عما هو باق خالد ، والحضارة الحقة ، الحضارة التي تشرّف الانسانية ، وتدل على سموها وعظمتها هي النقيض من هذا ، وهي الداعية الى التعلق بالخلد الماثل في روح الوجود »

ويرى تاجور في صلة الشرق والغرب غير رأي كثيرين يؤمنون بقول الشاعر الانكليزي رديارد كبلنج « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا » وهو لا يقر الكتّاب والأدباء والساسة الذين يقولون بوجود الفوارق الطبيعية بين الغرب والشرق التي تحول بين قيام التفاهم بين الثقافتين ، أو احلال ثقافة منها مكان الأخرى ، فيذهب تاجور غير مايذهب اليه علماء دراسة الفوارق الطبيعية التشريحية والانتروبولوجيا الذين يدرسون فوارق المدنيات من فوارق الطبيعة لتكوين الاجسام والجماجم بين الشرقيين والغربيين ، ثم يقولون باستحالة التمازج بين الحضارتين الخالصتين . إن تاجور ينظر الى الحضارة كأنها ميراث بشري لا وطن له ولا جنس ولا دم ينتمي اليه ، ويؤمن بأن الاخطاء التي اعترضت طريق الحضارات انما هي أمراض يمكن البرء منها، لانها من عمل أفراد استغلوا نفوذهم لتوجيه الأمم طبق رغباتهم وانانيتهم وضحوا بدم البشر في سبيل تحقيق ماتلح به انانيتهم واطماعهم . ودعوة تاجور ليست دعوة جاء بها عن طريق تفكيره ، وانما هي دعوة استمدها من تعاليم الفلسفة الشرقية ، من تعاليم الهند القديمة المعروفة بمذهب (أوتيوزسوفي) الذي يرمي الى احياء العالم من طريق انبعاث الروح وتوحيد الجانب الروحي

فنظرة تاجور الى الحضارة الغربية ليست الا نظرة مشفقة على ما في هذه الحضارة من كنوز بشرية غالية ، وهو يرى أن الغرب قد أصيب بمرض وبيل ، مرض الانانية والتعصب للجنس واللون ، وان داء الغرب هو الداء الذي سيقضي على حضارته ، لانه يحرم الحضارة

(١) قال تعالى : من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً (سورة المائدة) (٢) مجلة صادرة من الشرق تصدر ببرلين سنة ١٩٢٥
(٣) جريدة السياسة ٢٩ / ١١ / ١٩٢٦

من عناصر البقاء والتجدد، ومن الروح المعنوية الجامعة التي تبعث بهج الحياة فيها، وتلهم القادة والزعماء طريق الخير، وتمحو الاثرة وامتداد الكرامة، وتقرر مبادىء المساواة كحق مقتضى لكل بشري بمقتضى انسانيته واشتراكه في حمل تبعات الحياة، وان حرمان امة من الامم او شعب من الشعوب نصيبه في الثقافة والثروة ليس نتيجة نقص في تكوينه الطبيعي، وانما هذا الحرمان هو نتيجة تحكم شعب قوي بآخر، وحرمانه اياه حقوقاً له مقررة منذ الازل. وان قوانين الوراثة والتناسل ونظم الحكم والتعليم لا ترفع الانسان قدراً على انسانيته، وان صقلته وهذبته؛ وان حرمان الناس تنظيم الحياة المتحضرة وبسطها على الشعوب المحرومة ليس الا أثراً من آثار الحضارة الغربية التي استأثرت بمناهج الحضارة التي اشتركت فيها الشعوب جميعاً منذ خلق الانسان. وان ما يترتب على هذا الحرمان هو اثارة الحروب التي ستقضي من غير شك على عناصر الانانية القاتلة

***

ويرى تاجور ان العالم يخطىء الطريق عند ما ينشد السلام بضمان صلح او بعقد اتفاقات دولية. وانما يرى الوسيلة الوحيدة الى السلام في تحقيق الوحدة الروحية ونشر الافكار السليمة بين الشعوب؛ ونستطيع ان نقرر بأن لتاجور فلسفة اجتماعية يريد بها ان يبني للمجتمع البشري نظاماً يعيش في كنفه، وان هذه الفلسفة مدعمة بعقيدة قائمة على حقائق، تسير بمقتضى طبيعة الحياة نفسها، وتأتلف مع ما يجب ان تكون عليه الانسانية من وحدة روحية، وثقة متبادلة تنشأ بين الفرد والفرد، ثم بين الفرد والجماعة، ثم بين الجماعة والجماعات الاخرى، أي ان فلسفته ترمي الى جعل الحياة تلبي أبداً مطالب الوحدة الروحية العامة، وتحث المجتمع البشري على ان يسير طبق ما تطلبه الحياة من حب ووحدة وسلام

وتاجور بهذه الفلسفة يناقض المدنية الغربية في أسسها القائمة على الاثرة والانانية، وهو يريد ان يشفي المدنية البشرية من داء الغرب؛ أو هو يرمي الى نقد الحضارة وتنقيتها من العوامل الهدامة المنبثة في صميم تكوينها، والتي لازمت انقراض الحضارة البشرية في صورها المختلفة، فهو مشفق على حضارة الغرب ان تنهار ما دامت تسير في طريق الحضارات المنقرضة الاولى

وتاجور، بدعوته الى الروحية، يبشر بفلسفة الشرق، ويدعو الى الدعوة الخالدة التي انبعثت عن ضمير الاديان التي نشأت في الشرق جميعاً، فهو يقول: إن وحي الهند يختلف عن ذلك الذي يوحي به الغرب، اذ أنه يتضمن العالم قلب الانسان، وينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى،

وفلسفة الهند تعتد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة ، وتشعر بأن الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات اذا لم تقم بينهما الألفة والتعاون الصحيح

فدعوته الروحية دعوة شاملة جامعة بين البشر وعناصر الطبيعة جميعاً ، وليست مقتصرة على ما يبذل من جهد في ربط البشر برباط واحد من الألفة والمحبة ، وهو يكشفنا عن سر الحضارة الشرقية التي تعنى بالروح والمثل العليا ، فيقول فيها : « لم تكن رغبته في التملك والحيازة ، ولكن كانت رغبته في فهم الاشياء وادراك حقيقتها ، وتوسيع نفوذ ضميره عليها ، بأن ينمو هذا الضمير نمواً متصلاً باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط بهذا الانسان »

والحق في نظر تاجور ليس الحق الذي يراه الغربي المتحضر ، الحق الذي تعينه وتعرف اوضاعه القوة والمادة ، وانما « الحق هو ادراك شامل للكائنات ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق انما يكون بتخلل نفوسنا الاشياء لندرك كنهها »

فتاجور يدعو القادة عند ما يفكرون في مشكلات الحياة الاجتماعية والعمرانية ان يوحدوا أنفسهم ويربطوها بالعالم جميعاً برباط روح جامع ، وان يدركوا ادراكاً كاملاً حقائق الكائنات ، وما يحيط بهم من امم وقبائل لها حق الحياة مثلهم في هذه الدنيا . ويدعو تاجور الى وجوب الاتصال بالعالم ، ويرى في هذا الاتصال بقاء وغذاء متجدداً للحياة ، ومعنى هذا انه يدعو الامم الى تبادل الحياة والثقافة والمنافع المستمرة ، فهو يقول :

« يجب ان يعلم الانسان انه وان جاهد وبذل في الحياة فلن يخلق عناصر وجوده في ذاته من نفسه ، ولن يكون كالنحلة تدير عسلها من جهدها ... فالانسان لا يمكن ان يعيش على ما في جسده من عناصر ولا بد له من مدد موصول بما حوله من العالم ... فاذا ما عكف على نفسه يجتر القوت ويلتمس منه الطاقة رددت نفسه الى العطب وتعرضت إربا ولكن يمد النفس الآخر »

هذه هي الدعوة التي تحمل في رسالتها المعنى السامي للانسانية ، لان من يعيش في نفسه لنفسه يدنو من الصفات التي تلصق الأنانية بالفرد وتنزع به الى الأثرة وتبعده عن الشهامة والغيرة والشجاعة وحب الخير للكافة . بل ان هذه الدعوة تدفع الانسان الى ان يكون دائماً طالباً في تفكيره وثقافته ونظره نحو الاشياء

رب إله البشر جميعاً
تعرفت على كل فرد وجنس
يا مهيمنا على جميع الامم وان اختلفت ألوانها
وحد بين قلوبنا وانصب فيها المحبة
وأيدها بروح الحق والعدل